الفصل الخامس

في نقد الروايات المكتوبة عن أصل يوربا

(ينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا من النقد أوضح من سبيل من قبلنا على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا) الجاحظ في كتاب الحيوان

وقال أحمد زروق:

إذا أتى المتأخر بما لم يسبق إليه فهو على رتبته ولا يلزمه القدح في المتقدم ولا إساءة الأدب معه

قواعد التصوف

نقد الروايات المكتوبة في أصل قبائل يوربا

ليس بين أيدينا مرجع لمعرفة تاريخ ما قبل التاريخ في أصل قبائل يوربا غير مكتوبين اثنين أولهما: ما كتبه السلطان محمد بللو نقلاً عن عالم كشناوي ١٦٦٧م في كتابه (أزهار الربا في أخبار بلاد يوربا) ويرجع عهده إلى القرن الحادي عشر الهجري. السابع عشر الميلادي، وثانيهما: ما كتبه الأسقف النصراني من أبناء يوربا واسمه **صمويل جونسن** عام ١٨٩٧م وقد اعتمد هو على ما كتبه السلطان بللو قبله عام (١٨٢١م) وأضاف إليه الروايات الشفوية المتواترة على ألسنة كبراء بلاد يوربا ثم علق عليها برأيه الخاص.

ونحن لما ذكرنا منابع التاريخ في أول الكتاب وقسمناها إلى ثلاثة قلنا إن المنبع الشفوي الأسطوري المدون منه وغير المدون لا يعتمد عليه كالتاريخ الصحيح حتى يعرض على محك النقد، أو يجعل في غربال المنطق ليصير تاريخًا مقبولاً وإلا فليضرب به عرض الحائط.

فها نحن أولاً نبدأ في انتقاد تلك الروايات عسى أن نجد بعد الانتقاد طريقًا للتاريخ الصحيح، والجدير بالذكر هنا أن وجود كتاب تاريخي لقبائل يوربا منذ أربعة قرون إلى يومنا هذا إنما يعبر عن كيان هذه القبيلة وعن مكانتها السياسية والثقافية بذلك الوقت بين قبائل نيجيريا وغرب أفريقيا، وأن اسم يوربا ليس جديداً ولا مجهولاً في القديم كما يتوهم الذي لا يعرف.

وهناك كتاب آخر للعالم المذكور وضعه في أخبار فقهاء بلاد يوربا تحت عنوان (شفاء الربا)، وسواء كان علماء بلاد يوربا من أبناءها أو من الغرباء

فإن وجود العلماء بها لدليل قاطع على رسوخ قدم الثقافة العربية الإسلامية في بلاد يوربا قبل ظهور ابن فودي بقرنين اثنين، ولعل الكاتب الكشناوي محمد بن مسنى أحاط علمًا بأخبار بلاد يوربا عن واسطة أولئك العلماء.

أصل رواية سلطان بللو

لقد روى السلطان بللو كلامًا في كتابه إنفاق الميسور بالنص الآتي:

(أما بلد يوربا فبلدة واسعة ذات أنهار وأشجار ورمال وجبال، فمنها الأخبار العجيبة والأمور الغريبة بجانبهم مرسى سفن النصارى، ومضى يقول:

وأهل هذا البلد على ما يقال إنهم من بقايا بني كنعان الذين هم عشيرة نمروذ وسبب مقامهم بالمغرب على ما قيل إن يعرب بن قطحان هو الذي طردهم من العراق إلى المغرب فسلكوا بين مصر والحبشة حتى وصلوا إلى يوربا وكانوا يخلفون في كل بلد طائفة منهم.

ويقال إن أجلاف السودان الذين يعمرون جوف الجبال كلهم منهم.

وكذا أهل ياوري وهذا البلد يقرب وصف أهله بأهل نوفي.

وفي البلد أخبار عجيبة ذكرها محمد بن مسنى في (أزهار الربا بأخبار بلاد يوربا) اهـ كلام بللو.

أقول: قد عاش محمد بن مسنى الكشناوي بالقرن الحادي عشر الهجري حيث توفى (١٠٧٨).

تعليقنا على كتاب أزهار الربا وإنفاق الميسور

لا شك في أن وجود كتاب يذكر شيئًا كثيرًا أو قليلاً من أخبار قبائل يوربا منذ أربعة قرون مضت دليل قاطع على الاعتراف بكيان هذه القبيلة ووضعها السياسي والاجتماعي منذ قرنين قبل قيام دولة ابن فودى الذي كتب نجله محمد بللو عن القبيلة مرة أخرى في كتابه إنفاق الميسور (١٨١٥) وليس يخلو ما كتب الاثنان من أحد أمرين.

أولهما: إما أن يكونا قد كتبا عن المشاهدة بالعيان أو عن الروايات الشفوية فيجب علينا اليوم التمحيص والتحقيق.

وثانيهما: إما أن يكونا قد كتبا ذلك نقلاً من كتب التاريخ للأمة المجاورة أو أمة الأصل أو الفرع فيجب علينا الرجوع إلى تلك المصادر أو المراجع.

ولما لم نكن قد عثرنا على نسخة أزهار الربا حتى نعرف محتوياته اكتفينا بما قال السلطان بللو في عرض الكلام أن في البلد أخبارًا عجيبة وأمورًا غريبة.

فنقول في التعليق على ذلك إنها لا تعدو ما بقى اليوم من آثار تلك البلاد على ما يشاهد الناس من عيون تنفجر من الجبال أو أشجار باسقة طويلة وأصنام منحوتة من الصخور ظن الناس أنهم ممسوخين فيما غبر من الزمان، وبعض أحجار كريمة كالماس اللامع اتخذها الكفار آلهة يعبدونها من دون الله على أنها الشمس والقمر والنجم.

أو المسلة الحجرية التي نصبوها على قبر أحد ملوكها في مدينة إليفى طولها اثنا عشر قدمًا وعرضها أربعة أقدام.

أو بعض قطع رؤوس من البرونز أو النحاس أو الخزف الفخارية على وجهها رسوم برناوية نسبها بعض الأوربيين إلى آثار البرتغاليين الذين اكتشفوا هذه البلاد منذ القرن السادس عشر الميلادي قبل غيرهم من الأوربيين، وأسسوا في البلاد مدارس صناعية ترجح أن تكون هذه البقايا من آثارهم.

ويضاف إلى ذلك ما قد قرره السلطان بللو في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي أن بجانبهم مرسى سفن النصارى.

فقد دل ذلك على أن الأوربيين قد اتصلوا ببلاد يوربا منذ تاريخ متوغل في القدم وكانت بلاد يوربا مدخلاً عاماً للأوربيين إلى داخل نيجيريا.

أما قول السلطان بللو إن يوربا من بقايا بني كنعان الذين هم عشيرة نمروذ فذلك من آثار الرواية الشفوية التي لم تغربل فهي غير منقولة من كتاب سابق وغير مبني على أساس تاريخي ثابت.

فمن أجل تحقيق الكلام في ذلك يجب الرجوع إلى تاريخ بني كنعان من ناحية وإلى تاريخ يعرب بن قحطان من ناحية أخرى وإلى ما يتصل بذلك عملاً بقول الجاحظ "إنك لن تصل إلى ما تحتاج إليه من العلم حتى تتعلم مالا تحتاج إليه" كما أنك لا تصل إلى المكان الذي تسافر إليه حتى تمر بالمكان الذي لا تحتاج السفر إليه.

تاريخ بني كنعان

كنعان بن كوش بن حام بن نوح.

قال ابن خلدون: اتفق النسابون على أن ولد نوح الذين تفرعت منهم

الأمم ثلاثة سام وحام ويافث، وأن يافث أكبرهم وحام أصغرهم وسام أوسطهم.

أما كنعان بن كوش بن حام فقد ذكرت التوراة من أولاده أحد عشر ولدًا، وكانوا قد سكنوا في الشام، ومنهم العمالقة الذين انتشروا بالحجاز وباليمن وبالشام وامتزجوا بمن فيها، حتى بعث الله إليهم النبي موسى ليقاتلهم ببني إسرائيل الذين تحرروا من عبودية فرعون، ولما نكلوا عاقبهم الله بالتيه أربعين سنة مات فيها النبي موسى وتم النصر على يد تلميذه يوشع بن نون، فأخرج الكنعانيين العمالقة من الشام، فمر بهم ملك اليمن إلى فتح أفريقيا فجند منهم جنودًا لفتوحاته في أفريقيا التي سميت باسمه أفريقش بعد أن فتحها.

ممالك بابل وفارس

(ذكرت التوراة أن الموطن الأول للإنسان بعد الطوفان بأرض شنعار حيث اجتمع الذين خرجوا من الفلك فبنوا مدينة بابل ثم أرادوا بعد ذلك بناء برج ليرتقوا منه إلى السماء فبلبل الله لسانهم وشتت شملهم) اهـ.

ثم قال: ومن تلك الأرض خرج أشور وكلدان وكنعان ونبط وجرامقة ونينوي.

وتولى نمروذ بن كنعان على ملك بابل في عهد النبي إبراهيم فبنى صرحه المعروف ببرج بابل أو مدينة مجدل فبلبلهم الله.

ثم جاء بعد نمروذ ملوك على بابل من بني نبط ثم بخت نصر.

ثم جاء الفرس وغلبوا بخت نصر وكانت لهم دول متتابعة في أربع طبقات: البيشدانية ثم الكينية ثم الأشكانية ثم الساسانية التي غلب عليها

الإسكندر بعد قتله دار ثم الساسانية الأخيرة التي غلب عليها المسلمون أيام سيدنا عمر وعثمان فانقرضت بذلك دولتهم.

ممالك العراق

كانت أرض العراق تسمى أرض إيران ولما استعربت سميت العراق.

قال ابن خلدون نقلاً عن السهيلي: إن مدينة الحيرة تقع بين بلاد الفرس وبلاد العرب، وكان سابور من ملوك الساسانية هو الذي سخر العرب لدفع الإتاوة والجزية، وقد كانوا يهاجمونه في تخوم مملكته فاختار من ملوك طوائف العرب عمراً بن عدي جد آل المنذر وولاه عليهم، ثم تولى بعده ابنه امرؤ القيس الأول ثم المنذر ثم النعمان فظلوا كذلك حتى ظهر الإسلام، ولما رأى ذلك ملوك الروم بالشام فعلوا مثله بأن اختاروا بني جفنة ملوكًا على التخوم بينهم وبين العرب في الحدود بينهم وبين بلاد الروم بفلسطين ثم جاء بنو غسان وغلبوا بني جفنة.

ويرجع تاريخ انتشار العرب إلى تخوم الفرس والروم إلى حادثة سد مأرب باليمن.

لم يذكر التاريخ أن العرب العاربة أو المستعربة استولوا مرة على الفرس ولا على العراق بتخوم بلاد الفرس ولا على الشام بتخوم بلاد الروم غير العرب البائدة.

فلا مدخل للقول بفتوحات يعرب بن قحطان لبلاد العراق وهو من العرب العاربة، ولكن لا يستبعد هجوم بعض التبابعة بعد يعرب على بلاد العراق في عهد الدولة الكينية والساسانية.

بلاد اليمن هي الموطن الأصلي للعرب

كانت بلاد اليمن موطنا أصليا لسائر أجناس العرب وبها قامت ممالكهم الأولى من طبقات العرب الأربع: العرب البائدة أبناء عاد، والعرب العاربة أبناء قحطان، والعرب التابعة المستعربة أبناء عدنان، والعرب المستعجمة أبناء إسماعيل إلى آخر بني أمية وأبناء قضاعة إخوة بني حمير وبني كهلان.

أما العرب البائدة فهم العمالقة من عاد قوم هود موطنهم بأحقاف بين اليمن وحضرموت، وثمود قوم صالح موطنهم بين الحجاز والشام.

ويقول شكيب: إن ذلك يعود إلى ألفين وخمسمائة سنة قبل المسيح، والعرب يضرب بهم المثل في الطول، ومن اليمن نزحوا إلى سائر أنحاء العالم فملكوا الحجاز والشام، قيل وملكوا العراق ومصر.

أما عمالقة الحجاز فكانت مواطنهم أرض تهامة نزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النمارذة، وظلوا بها حتى جاء النبي إسماعيل إلى بني جرهم من قبائل قحطان فأخرجتهم من الحجاز فتفرقوا في البلاد.

أما عمالقة مصر فقالوا إن أحد ملوك القبط استنصر بملك العمالقة بالشام فأرسل إليه قائداً اسمه ثوران فجاء مصر فاستولى عليها واستعبد القبط، فصار من الفراعنة الذين تملكوا على مصر ومنهم فرعون إبراهيم وفرعون يوسف وفرعون موسى الذي غرق في اليم، فرجع ملك مصر بعد ذلك إلى القبط أهل البلاد الأصليين.

أما عمالقة الشام فهم الكنعانيون الجبابرة ظلوا بها حتى بعث الله إليهم موسى ويوشع وكالب فانتزعوا الشام من أيديهم فاحتلها بنو إسرائيل، ثم

دارت الحرب بينهم وبين هؤلاء الجبابرة أيام طالوت وداود وسليمان فأذلوهم.

أما عمالقة العراق فهم كانوا من عاد ثمود الذين كان موطنهم الأصلي بين الحجاز والشام، ومنها استفاضوا إلى أرض بابل وأرض إيران بما فيها الجزء الذي عرف أخيراً بالعراق، ولما خرج نمروذ بن كنعان من الشام إلى أرض بابل وقاتل من فيها واستولى عليها وهناك فر العمالقة منها إلى الحجاز قبل أن يتغلب عليهم بنو جرهم وبنو إسماعيل.

العرب العاربة هم الطبقة الثانية وهم بنو قحطان

أما العرب العاربة فهم أبناء يعرب بن قحطان الذي غلب عادا (العرب البائدة) في اليمن ثم غلب العمالقة في الحجاز فولى عليهم جرهم.

قال ابن خلدون: كان يعرب بن قحطان من أعاظم الملوك وأول من حياه قومه بتحية الملك هو الذي ملك بلاد اليمن وغلب عليها قوم عاد، وغلب العمالقة على الحجاز وولى إخوته على جميع أعمالهم وولى جرهما على الحجاز.

غزا الأقطار وغلب عليها وأنه عاش بالقرن العشرين قبل الميلاد[1].

وملك بعد يعرب ابنه يشجب وملك بعد يشجب ابنه عبد شمس وغلب على مصر وبنى مدينة عين شمس وولى عليها ابنه بابليون.

وكان لسبأ أولاد كثيرون أشهرهم حمير وكهلان.

(١) انظر: ابن خلدون ٢/ ٤٧والحضري ١/ ٢٩.

ثم ملك حمير وملك بعده أخوه كهلان وكان منهما التبابعة وأولهم الحرث الرائش ثم أبرهة ذو المنار ثم أفريقش بن أبرهة فاتح أفريقيا، لذلك سميت القارة باسمه، ثم العبد بن أبرهة ثم الهدهاد بن بلقيس سليمان.

هذا كله فيما يتعلق بأمر يعرب بن قحطان وعلاقته بالكنعانيين والعمالقة في الحجاز والعراق والشام.

أما ما يتعلق بالنبي إبراهيم الذي بعثه الله إلى نمروذ بن كنعان فنقول:

إن إبراهيم أبو الأنبياء فهو ابن آزر بن ناحور بن ساروخ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشد بن سام بن نوح، كان أصلهم باليمن ثم سكنوا شرقي دجلة مع الكلدان وعابر الذي هو من أجداد إبراهيم وهو أول من تكلم بالعبرانية.

أما نمروذ بن كنعان بن كوش بن حام فكان أبوه بالشام ومنها سار إلى أرض بابل فملك عليها، وكان أول من ملك الأرض بعد الطوفان، وورث نمروذ ملك أبيه كنعان وعظم سلطانه وطال عمره وأخذ بدين الصابئة واستخلص نمروذ آزر وقدمه على بيت الأصنام، وولد لآزر إبراهيم فبعثه الله إلى نمروذ فحاربه فكان ما كان من أمره كما قص القرآن.

ثم أمر الله إبراهيم بالخروج إلى أرض الكنعانيين بالشام.

ويقول الأستاذ شكيب أرسلان:

إن العمالقة وهم العرب البائدة يعود عهدهم إلى ألفين وخمسمائة عام قبل الميلاد وذلك مبدأ عهد يعرب بن قحطان أبو العرب العاربة.

ويقرب عهده من نمروذ وعهد إبراهيم جد بني إسرائيل الذين منهم

يوسف وموسى الذي بعثه الله لقتال عمالقة الشام والكنعانيين الجبارين فغلب عليهم يوشع، وفي عهده تملك التبابعة على مصر وشمال أفريقيا.

بقية الكلام على رواية سلطان بللو

أما قول السلطان (إن يوربا من بقايا بني كنعان الذين هم عشيرة نمروذ طردهم يعرب بن قحطان من العراق إلى المغرب فسلكوا بين مصر والحبشة حتى وصلوا أرض يوربا) ففي الكلام معضلات ثلاث.

المعضلة الأولى: هل كان يعرب بن قحطان فاتحًا للعراق حتى يكون طاردًا قومًا من بقايا ملوكها مع أن يعرب قد عاش في القرن العشرين قبل الميلاد وسجل التاريخ أن له فتوحات في اليمن وفي الحجاز قاتل فيها بقايا العرب البائدة وولى أخوته عليها فكان بذلك مؤسس العرب العاربة.

ولم يذكر التاريخ أن له فتوحات في بلاد فارس ولا في أرض بابل أو بلاد العراق التي ظلت بأيدي بني كنعان من الجرامقة والكلدانيين ثم انتقلت إلى أيدي النبط الأشوريين ثم إلى الفرس بطبقاتها الأربع البشدادية والكينية والأركانية والساسانية التي سقطت تحت سنابك خيل المسلمين أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما.

وإذا كان هناك فتوحات وغزوات من العرب لأرض بابل وأرض العراق فمن عمالقة عاد الأولى ثم من التبابعة لا من العاربة التي على رأسهم يعرب ابن قحطان.

ولتمام الإيضاح نقول: إن العمالقة من العرب البائدة عرب عاد وثمود قد ملكوا رقاعًا واسعة في أرض آسيا وأفريقيا من أيام أبيهم عاد وأبناءه إلى أن انقرضوا بقيام العرب العاربة وذلك بألفين وخمسمائة عام قبل الميلاد.

ويقول ابن خلدون : إن أخبار العرب بالعراق في العرب البائدة لم يصل إلينا ولم يتم أن قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق[1]. إلا وما كان في العرب العاربة الذين قاموا بقيادة يعرب بن قحطان في القرن العشرين فغلب على البقية من العرب البائدة والعمالقة، فتفرع العرب العاربة إلى بني قحطان وبني قضاعة وبني عدنان ثم بني إسماعيل، وقد كانت العراق جزء من أرض بابل وفارس وكانت قطعة من أرض إيران، وإنما سميت عراقًا بعد نزول العرب العاربة فيها بالقرن الثاني قبل الميلاد فقط.

وكان أول من نزل بها من العرب العاربة مالك بن فهم وأخوه عمرو ابن فهم، فهم خرجوا من اليمن من أجل انفجار سيل العرب بانهزام سد مأرب وأسسوا بها ملوك الطوائف في تخوم بلاد فارس، وهم كانوا من بني قضاعة أخوة حمير من بني قحطان.

وكان عمرو بن عدي أول من اتخذ الحيرة منزلا فاستعمله كسرى سابور على حراسة حدود مملكته من هجوم العرب عليها.

وروى ابن خلدون عن الطبري وغيره أن تبع أبا كرب من أحفاد يعرب حين غزا العراق هو الذي أقام ليلا بمكان تحيروا فيه فسمى المكان الحيرة.

وقال آخر: يقول إن بخت نصر من ملوك فارس لما غزا العرب قبض على من في بلاده أولا وأنزلهم بهذا المكان فتحيروا فبذلك سمى الحيرة.

المعضلة الثانية: قول بللو طردهم يعرب بن قحطان من العراق إلى أرض يوربا.

---

(١) جزء ثان ص٤١ .

كيف يمكن ليعرب أن يطرد يوربا إلى أرض يوربا فمن الطارد ومن المطرود؟ أليست كلمة يوربا تحريفًا ليعرب؟ فكيف تمسكت قبيلة يوربا باسم يعرب الذي طردهم من بلادهم؟ اللهم إلا إذا كانوا من العرب البائدة فيكون يعرب قد طردهم إما من اليمن أو من الحجاز، أما من العراق فلا لأنه لم يحارب ولم يستول عليها ولم يطرد قومًا منها، أو إذا كانوا من العرب البائدة فيكون أحد التبابعة الذين حاربوا العراق من العرب العاربة هو الذي طردهم من أرض بابل وأرض فارس فيكون ذلك بعد أيام يعرب ابن قحطان، أو أن يكون أحد العمالقة قبل يعرب هو الذي طردهم من العراق عند استيلاءهم على أرض بابل، أو أن يكونوا من العمالقة فيكون نمروذ بن كنعان هو الذي طردهم عند غلبه أرض بابل.

المعضلة الثالثة: كيف يطرد يعرب بن قحطان قومًا من العراق إلى المغرب ثم لا يجدون مسلكًا من العراق عن طريق فلسطين التي هي أقرب للعراق، فيجتازوا صحراء سينا إلى مصر ومنها إلى بلاد السودان والزنج.

ولكنهم وجدوا طريقًا من اليمن بلاد يعرب الذي طردهم من العراق ليمروا بباب المندب إلى أرض الحبشة ومنها إلى بلاد السودان وبلاد الزنوج.

اللهم إلا إذا كانوا من العرب البائدة والعمالقة الذين قاتلهم يعرب ابن قحطان في اليمن فتغلب عليهم ففروا من وجهه عبر مضيق باب المندب الذي هو أقرب لليمن إلى الحبشة ومنها إلى السودان والزنج.

ولقد ثبت في تاريخ مصر القديم أن قومًا من عرب اليمن يقال لهم الهكسوس (الملوك الرعاة) نزلوا مصر وحكموها ثلاثة قرون ثم قام أحمس رأس الأسرة الثامنة من الفراعنة وطردهم من مصر إلى بلاد النوبة والبربر

والزنج، وأسسوا هناك أيضًا دولة جديدة أخرى دامت حتى جاءت النصرانية فتنصروا، ثم جاء الإسلام وحاربهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح فتغلب عليهم ففر من فر منهم إلى الجنوب وإلى بلاد الزنوج.

(قلت) إن في ربط هذه القصة مدخلاً للقول بطرد يعرب قومًا من عمالقة اليمن إلى مصر ثم طرد المصريين لهم إلى بلاد النوبة ثم فرارهم منها عندما غلب عليهم جنود الإسلام ففروا من تلك الناحية ولم يمنعهم حاجز طبيعي حتى وصلوا إلى هذه البلاد التي عرفت بهم تحت اسم بلاد يوربا.

نقد رواية صمويل جونسن

أول من كتب تاريخ يوربا بالإنكليزية من أبناء يوربا هو **صمويل جونسن** الأسقف اليرباوي من أساقفة النصارى الأولين كتب تاريخه عام ١٨٩٧م.

اعتمد فيه على رواية سلطان بللو في إنفاق الميسور وعلى الروايات الشفوية المنقولة من أسلافه وأجداده، ثم ختم الحكاية برأيه الخاص بنفسه لذلك يقسم الكتاب إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الروايات الأسطورية فقد سبق لنا إيرادها في أول الكتاب.

القسم الثاني: رواية السلطان بللو ومزجها بما سمعوه من العلماء المسلمين من قصة إبراهيم ونمروذ.

القسم الثالث: رأيه الخاص في الروايتين.

القسم الرابع: مشاهداته الخاصة في أحوال قبائل يوربا والحروب الأهلية التي أكلتها إلى أيام الإنكليز والكلام على فروع قبائل يوربا وتأسيسها لبلدانها وحكوماتها.

فنحن لا نتعرض لهذا القسم الأخير ولا نطيل الكلام للقسم الأول ولكننا نتعرض للقسم الثاني والثالث ونتناولها بالفحص والنقد لإظهار الحقيقة والصواب.

القسم الثاني من رواية صمويل جونسن

يقول صمويل جونسن في ص ١٤٣ وما بعدها في كتابه (تاريخ يوربا) ما معناه من الترجمة:

تنحدر قبائل يوربا من نمروذ الذي كان ملكًا على مكة في عهده، وكان لهذا الملك أمير بصفة ولي العهد اسمه اوددوا كان متحمسًا للوثنية إلى أقصى حد، وكان يبذل أقصى جهده لتحويل أهل مكة كلهم إلى الوثنية، وكان كاهنه الأعلى يدعى آزر ينحت الأصنام ويبيعها للأنام في الأسواق، وكان لهذا الكاهن ولدًا اسمه إبراهيم يدين بالإسلام وإذا كلفه أبوه أن يذهب بالأصنام ليبيعها في الأسواق ويأتيه منها بالأموال يبدأ هذا الولد ينادي على بيعه (من يشتري ما لا ينفع ولا يضر) فلا يشتري منه أحد فيرجع إلى أبيه خاسرًا، هكذا استمر حتى صار كبيرًا في السن.

واتفق أن خرج نمروذ وقومه للصيد في البراري فانتهز إبراهيم هذه الفرصة وحمل على بيت الأصنام بالفأس فجعلها جذاذًا إلا كبيرًا لهم، ثم علق الفأس على عنق هذا الكبير ليرجع إليه أهله، ولما رجعوا سألوا إبراهيم عن هذا لأنه هو الوحيد الباقي دون الناس في البيت فقال لهم اسألوا كبيرهم هذا لأن الفأس في عنقه، فقالوا هل ينطق الصنم؟

قال كيف تعبدون ما لا ينطق فأمروا بحرق إبراهيم للدفاع عن الأصنام، فجمعوا آلاف الوقود فأضرموا فيها نارًا فهناك انقسم الناس فريقين:

فريق مع إبراهيم وفريق آخر مع نمروذ.

فقامت الحرب بين الفريقين فانتصر فريق إبراهيم وتغلب على فريق نمروذ، فقتلوا نمروذ وطردوا أتباعه من مكة ففر ولي عهده مع إخوانه تجاه الغرب وهم ثلاثة:

أحدهم الذي تملك على بلاد **غوبر** والآخر تملك على بلاد **كوكاوا**، أما ولي العهد فسافر تسعين يومًا من مكة حتى وصل إلى مدينة إليفى ونزل على شتيلو[1] زعيم الكهان الذي سبق إلى تلك البلاد من زمان معلوم.

ثم أرسل قوم إبراهيم وراء أولاد نمروذ شعيبًا وجنودًا للقضاء على ولي عهده، ولما جاء والتقى الجيشان انهزم شعيب وجنوده وقتل في إليفى وأخذوا منه مع السلب مصحفه المربوط في غلاف الجلد وعلقوه على جدار في البيت الذي نزل شعيب فيه، وبعد طول المدة اتخذوا هذا المصحف وثنا يقدسونه ويستمطرون به عند الجدب حتى صار لهم موسما من مواسمهم باسم عيد المربوط.

ويزعم **صمويل جونسن** أن الرواة قالوا إن هذه الحادثة وقعت بعد وفاة النبي محمد، ولكنه رجع معلقًا على الرواية أن القصة لم توجد في تاريخ مكة ولم يكتبها أحد من المؤرخين العرب لذلك لم يقبلها تمامًا ولم يرفضها تمامًا.

أما من جهة قبوله القصة وعدم رفضها تعليقه عليها حيث قال في صفحة (١٧) يحتمل أن تكون كلمة آزر الذي ذكره المسلمون كلمة محرفة من أنصاري حسبما كان المسلمون يسمون المسيحيين.

---

(١) شتيلو: تحريف سطيح.

وكذلك قال إنه يحتمل أن يكون ما يسمونه مصحفًا من القرآن المربوط ليس قرآنًا ولكنه جزء من الكتاب المقدس جاء به أحد أقباط مصر إلى مدينة إليفي عندما طرد المسلمون نصارى الأقباط من مصر.

واعترض جونسن على من يقول إن اليوربا من العرب وجزم بأنهم ليسوا من العرب ولا شيء في عروقهم من الدم العربي، وإنما هم من رعايا نمروذ الفينيقي فاتح مصر، فقد رافقوه في فتوحاته إلى البلاد العربية ومكثوا بها برهة ثم انتسبوا إلى نمروذ قبل أن يطاردهم منها من طاردهم.

أقول: من الذي قال لجونسن إن نمروذ فتح مصر قط أو مر بالحجاز في فتوحاته أو مكث برهة بمكة؟ ومن لنا بتنزيه قلم جونسن من هذه المزاعم السخيفة التي لولاها لكان كتابه هذا في المستوى الرفيع بين جميع كتب التاريخ في العالم؛ لأنه قد أتى بالعجب العجاب في التدوين والتصنيف على الأسلوب الراقي، ولكنه نزل من الأوج إلى الحضيض في الإغارة على قصة إبراهيم ونمروذ في صورة مضحكة تجعل المستهزئ به في حل وحرية إذا عرف القصة في القرآن وكتب التاريخ العام، أو يوقع العاقل في حيرة مما حمل جونسن على افتراضات المزاعم السخيفة.

منشأ الغلط من صمويل جونسن وأساتذته

لما أراد أسلاف يوربا تصحيح تاريخهم على ضوء اتصالهم بثقافات الأمم الراقية من المهاجرين الذين وفدوا عليهم من آسيا وشمال أفريقيا وعرفوا بطلان رأيهم أنهم أول الخلائق، أخذوا بقول المهاجرين إن أجداد الجميع أتوا من الشرق حيث ثبت قصة آدم أبي البشر وأن الدنيا أوسع مما تصوروا.

وحيث علموا أن في العالم ملوكًا ودولا كبرى وأن أعظم ملك في الدنيا القديمة هو نمروذ بن كنعان، وهو الذي تعلق به قصة النبي إبراهيم المبعوث لقمع طغيانه، كما سمعوا قصة موسى وفرعون وشعيب صاحب مدين وصهر النبي موسى.

ثم سمعوا باسم مكة والكعبة وما فيها من الأصنام وبعثة النبي محمد لتطهير بيت الله الحرام من الأصنام، وسمعوا بالقرآن المنزل من الله وقوة تأثيره في النفوس، كما أنهم سمعوا خبر سطيح الذي أرسل إليه كسرى فارس يسأله عن رؤياه عند ولادة النبي، وكان سطيح على سكرة الموت ولكنه عبر الرؤيا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، حرف اليرباويون اسمه إلى شَتَيْلوُ وقالوا إنه مؤسس الكهانة في بلاد يوربا.

زعموا أنه من النوبة ولد أعمى في عهد محمد وطرده محمد من مكة، فعبر النهر إلى مدينة عووو ثم إلى آدو ثم بنين واستقر أخيرًا في إليفى. قاله صمويل حونسن ص(٣٣).

قصة إبراهيم ونمروذ كما في القرآن الكريم

نورد هنا قصة النبي إبراهيم ونمروذ التي تلاعب بها أساتذة جونسن متجاهلاً بمصدرها القرآني ليعرف تلاميذهم أنهم قد اعتدوا وظلموا القصة.

لقد ذكر القرآن هذه القصة مجملة أو مفصلة في عدة سور منها ما جاء في سورة البقرة وسورة الأنعام وهود ومريم والأنبياء والصافات.

ولنقدم توضيح المفسرين للقرآن وتسجيل المؤرخين للقصة وأقواهم ابن خلدون والمسعودي والطبري وابن الأثير وغيرهم حيث قالوا:

إن أول من ملك الأرض بعد نوح هو كنعان بن كوش حام بن نوح، خرج من الشام إلى بابل وحارب أهلها وقاتلهم وتملك عليهم ثم ورث ملكه ابنه نمروذ وعظم سلطانه في الأرض وأخذ بدين الصابئة عبدة الكواكب، وكان أبوه على دين التوحيد مع قومه الكلدانيين ولكن نمروذ صبأ بعده واستخلص نمروذ آزر (وفي التوراة اسمه تارح) ولكن القرآن سماه آزر، وقدمه نمروذ على بيت الأصنام وكان نجارًا ينحت الأصنام ويبيعها، وولد له إبراهيم الذي تمسك بدين التوحيد وكان في جدال مستمر مع والده آزر حتى بلغ أشده أرسله الله إلى نمروذ وقومه لترك الأصنام إلى عبادة الله وحده، حتى تخلف يومًا عن قومه وكسر أصنامهم كما قص القرآن في سورة الأنبياء، ولما علموا بذلك أتوا به على أعين الناس أمام نمروذ فقامت المناظرة بينه وبينهم، وفي المناظرة قال نمروذ كما حكاه القرآن من ربك يا إبراهيم قال: ربي الذي يحيي ويميت.

ونص القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ولما عجز نمروذ عن البرهان لجأ إلى القوة وأمر بإحراق إبراهيم كما قال القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ

لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١- ٧٠].

ولما عجز نمروذ عما يفعل في أمر إبراهيم أمره بالخروج من بلاده فخرج إبراهيم من أرض بابل إلى فلسطين عبر مصر، وحدث بينه وبين فرعون ذلك العهد وهو فرعون الذي أهدى له هاجر أم إسماعيل عليه السلام.

ثم عاد إلى فلسطين وولد هناك إسماعيل إلى أن أمره الله بإخراج هاجر وابنه إلى الحجاز، فنزل على بني جرهم هناك إلى أن جاء إبراهيم وبنى بيت الله الحرام مع إسماعيل الذي بعثه الله إلى بني جرهم رسولاً كما هو معروف في التاريخ.

قصة المصحف المعبود في مدينة إليفى

كتب توماس أرنولد في كتابه(الدعوة إلى الإسلام) تناول فيه ماضي الإسلام وحاضره في سائر أنحاء العالم في أواخر القرن التاسع عشر، وهو مستشرق عاش في بلاد الهند وطاف ببلاد العرب وبلاد الإسلام شرقًا وغربًا وبحث وقرأ وكتب ما لم يكتبه غيره من المستشرقين، وأظن أنه اعتنق الإسلام أخيرًا.

فاهتم العلماء المسلمون بكتابه هذا وقام بترجمته من الإنكليزية إلى العربية أساتذة كبار وهم الدكتور حسن إبراهيم والدكتور عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، كتب عن بلاد يوربا في ذلك الكتاب بصفحة (٣٦٣) ما نصه:

(يقال إن الإسلام في مملكة يوربا بوجه خاص ترسخ قدمه بسرعة، وهناك أسطورة عن محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام في هذه البلاد.

وفي وقت مبكر إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي ولكن المحاولة لم تنجح، كان هذا الرجل من الهوسا جاء إلى مدينة إليفى حاضرة مملكة يوربا الوثنية وجعل يدعو الناس إلى الإسلام ويتلو عليهم آيات القرآن، وكان لا يستطيع أن يتكلم بلغة يوربا بطلاقة فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه في لهجة أجنبية قوله: (هلم نعبد الله الذي خلق الجبال والوهاد وخلق كل شيء).

وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح في كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام، ومات الرجل بعد ذلك بأشهر قليلة، وبعد موته

وجدوا المصحف معلقًا على مشجب في حائط حجرته، فصار أهل هذه البلاد يقدسونه على أنه وثن).

هذه هي القصة التي حام حولها جهلاء مدينة إليفى بأن إبراهيم أو محمدًا أرسل شعيبًا وراء ابن نمروذ وأن أهل إليفى قتلوه وأخذوا منه مصحفه.

ولا يوجد اليوم ذلك المصحف في مدينة إليفى، ويبدو أن الأوربيين الذين اكتشفوا البلاد هم الذين حملوه إلى بلادهم وهم الذين قدروا تاريخ المصحف أو وجدوا فيه التاريخ الهجرى مكتوبًا حتى قرروا أنه يعود إلى القرن الحادي أو الثاني عشر الميلادي، وهو ما بين القرن الخامس والسادس الهجري.

ويظهر كذلك أن هذا الرجل الذي وصفه القوم لتوماس أرنولد بأنه هوساوي لم يكن إلاَّ وَنْغَرِيّاً مَلاّوِيّاً لأن الملاويين الونَاغرَة هم الذين حملوا الدعوة الإسلامية إلى بلاد هوسا وبلاد يوربا فيما بين القرن الثاني عشر إلى الثالث عشر الميلادي.

فالإسلام لا يزال غريبًا عند هوسا حديثًا عهده بينهم في ذلك الزمان، ولذلك سمى اليرباويون دين الإسلام بدين مالي إلى يومنا هذا.

وربما يخيل إلى أهل مدينة إليفى في عهد أرنولد أن الذين نشروا الإسلام بعد ذلك كانوا من الهوسا فأطلقوا على الجميع كلمة هوسا.

وكذلك يخيل إلى أذهان جهلاء إليفى القدماء أن هذا الرجل كان مبعوثًا إليهم من مكة أيام إبراهيم أو أيام محمد.

وربما كان اسم هذا الرجل شعيبًا فربطوا قصتهم بهذه التلفيقات الخاطئة.

ولا يزال أهل مدينة إليفى يخرجون لتقديس هذا المصحف كل عام في صورة الاستسقاء به عند الجدب.

ولعل ذلك الداعية قد خرج بهذا المصحف لاستسقاء به في عهده فظلوا يقلدونه التقليد الأعمى واتخذوا المصحف وثنا يعبدونه حتى اليوم.

إذ كان الوناغرة في تاريخ قريب لذلك يحملون الإسلام إلى كاشنة ثم إلى كانو، ولا يزال بين هوسا غريبًا فلن يخرج لنشره منهم غير الذين خرجوا من بلادهم ونشروه هناك في بلاد هوسا.

●●●